السيرة الهلالية بين الواقع التاريخي والخيال الكاذب!

*د. غسان إسماعيل عبد الخالق

لماذا صدم طلاّبي بالسيرة الهلالية؟

طلابي الأعزاء لم يكفّوا عن إبداء دهشتهم واستغرابهم الشديد، جرّاء اطّلاعهم على نص السيرة الهلالية، الذي قررت إدراجه ضمن مساق أدب العصور المتتابعة، بوصفه النموذج الأمثل للأدب الشعبي الشفوي الذي اجتاح بلاد الشام ومصر بدءًا من القرن السابع الهجري. ومبعث الدهشة والاستغرب اللّذين أبداهما طلاّبي الأعزاء، يتمثل في اعتقادهم بأن السذاجة الشديدة هي الميسم الرئيس الذي يمكن أن نسم به السيرة الهلالية، فضلاً عن اللاعقلانية والتلفيق والفشر!! فكيف يمكن لسيرة على هذه الدرجة من السطحية أن تتحول إلى المروية الأولى والأهمّ طوال سبعة قرون؟!

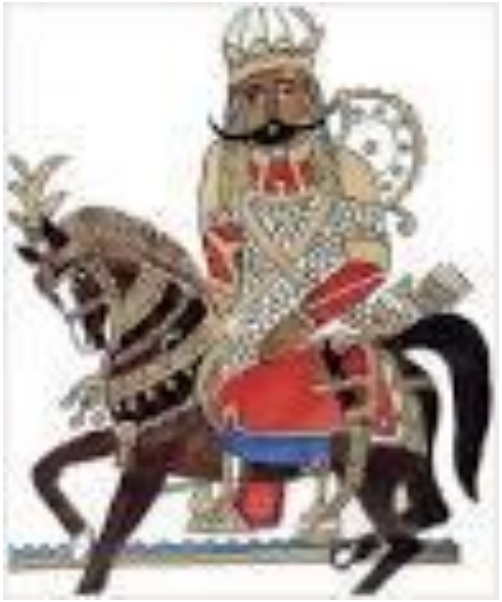

إذا نظرنا بعين الاعتبار الشديد، إلى حقيقة أن الحركة الكبرى لبني هلال قد حدثت في القرن الخامس الهجري، وتمخضت عن تدمير الحالة الحضارية والثقافية لدول المغرب العربي، بتحريض من الدولة الفاطمية التي هدفت من وراء ذلك، إلى معاقبة التونسيين تحديدًا، بسبب عودتهم إلى المذهب المالكي، فإن مما يسترعي النظر أن تتأخر عملية إعادة إنتاج السيرة الهلالية أو الرواية المتخيّلة قرنين أو ثلاثة قرون، وكأن هذا التأخّر أو التأخير قد تكفَّل بمحو ما حدث فعلاً، من الذاكرة المشرقية، وجعل هذه الذاكرة مهيأة لتصديق ما تم تلفيقه زمانًا ومكانًا وحدثًا وشُخوصًا. وقد ساعد على هذه التهيئة الحاجة الماسة لابتكار ملاحم بطولية، من شأنها التعويض عن الشعور العام بالعجز والقلق والخوف، جرّاء الهجمات المتوالية التي شنها الفرنجة والمغول على المشرق العربي.

بالعودة إلى السيرة ذاتها، فإن من الضرورة بمكان، رصد آليات التفكير والشعور التي راكمتها السيرة الهلالية طوال قرون في مصر وبلاد الشام، بوصفها حديقة الخيال الأولى والوحيدة التي يمكن لابن القرية والمدينة معًا، أن يسرّح عقله وعواطفه فيها، تاركًا للراوي حريّة التحكم في ذلك العقل وتلك العواطف تبعًا للظروف ولمن يمكنه أن يدفع أكثر؛ فترى الراوي ينحاز تارة إلى جانب أبي زيد الهلالي وتراه تارة أخرى ينحاز لذياب بن غانم، والمستمعون مأخوذون تمامًا بما يروى –على سذاجته وسطحيته– ولا يفعلون أكثر من أن يزدادوا أنغماسًا بالرؤية الخرافية والمنهج الانفعالي والتعبير الركيك، إلى الحد الذي لا تستطيع أن تمنع نفسك معه من الشعور بالرثاء تجاه ذلك الجمهور الذي كان يغرق في بحر من الملل والفراغ دون ريب. إذ كيف كان يمكن لذلك الجمهور أن يحتمل كل ذلك الخيال المكرور، ونحن في هذه الأيام نتفجّر مللا رغم كل وسائل التسلية والترفيه المتاحة؟!

ما يسترعي النظر أيضًا في السيرة الهلالية، أنها كانت الأكثر سطوة وتأثيرًا على المستوى الرسمي والشعبي، رغم أنها انتجت في الحقبة نفسها التي شهدت انتاج عشرات الموسوعات الثقافية العربية جرّاء الإحساس العارم بضرورة حماية الذات الحضارية. وقد تعالت سطوة السيرة الهلالية إلى درجة أن ابن خلدون ضمّن مقدمته الفذّة نماذج من أشعار هذه السيرة! فهل يعني ذلك أن السيرة الهلالية قد اشتملت على طاقات اتصالية خفيّة لم ننجح حتى الآن في اكتشافها؟!

تغريبة بني هلال: حقيقة ما جرى...

تعدّ (تغريبة بني هلال) من أكبر الحركات البشرية التي تمّت داخل الوطن العربي سعيًا وراء الماء والخضراء والوجه الحسن! وقد أسفرت هذه الحركة عن خراب، ربما تجاوز في حجمه وآثاره، ذلك الخراب الذي أحدثه المغول في المشرق العربي. ومع ذلك فقد استطاع الراوي الهلالي أن يعمِّم روايته الخاصة لما حدث، إلى الحد الذي ما زلنا نجد معه كثيرًا من الشعراء والقصّاصين والروائيين يوظفون التغريبة في أعمالهم، على نحو يشي بعدم معرفتهم حقيقة ما حدث.

المشهد الأول: تاريخي ...

في عام 360هـ، اجتاح الأعصم القرمطي بلاد الشام، وتوغل قليلاً في مصر الفاطمية، فانضم إليه لفيف من القبائل العربية مثل بني هلال وزغبة وسُليم ورباح وعدي وربيعة والأثبج. وقد استطاع الخليفة الفاطمي المعز لدين الله أن يردّ الأعصم على أعقابه بعد أن نجح في استمالة هذه القبائل إليه وإسكانها في صعيد مصر بين النيل والبحر الأحمر. غير أن هذه القبائل راحت تشكّل عبئًا ثقيلاً على الحكم الفاطمي بما أثارته من قلاقل، فلاحت فرصة نادرة للتخلص منها أمام الخليفة الفاطمي المستنصر (427 – 487هـ) حينما أقدم المعز بن باديس الصنهاجي حاكم تونس على إيقاف الدعاء للفاطميين وانحاز للخليفة العباسي القائم بأمر الله سنة 443هـ. وقد أشار الوزير الداهية (اليازوري) على المستنصر بإغراء جحافل الأعراب بغزو المغرب لقاء منحهم كل ما تقع عليه أيديهم من أرض أو مال أو سبايا، وصادفت هذه الدعوة ترحيبًا حارًا لدى شيوخ القبائل الذين حصلوا على أعطيات مالية طائلة وضمنوا لكل رجلٍ من رجالهم بعيرًا أو دينارًا. فتخلّص الخليفة الفاطمي بذلك من كابوس هذه القبائل، وانتقم من حاكم تونس في الوقت نفسه.

اندفعت هذه القبائل باتجاه الغرب كالإعصار، فاجتاح بنو رياح بُرقة وتملّكوها. واكتسح بنو زغبة طرابلس وأخضعوها لحكمهم. أما بنو هلال والأثبج وعدي فقد يمموا صوب تونس فلم يبقوا على شيء صادفوه. وقد حاول المعز بن باديس التصدي لهم فالتحم معهم في معركة (حيدران) إلا أنه هزم فانسحب إلى القيروان، درة مدن المغرب آنذاك، وآثر استمالة شيوخ القبائل من خلال تزويجهم بناته، فدعاهم إلى القيروان لإتمام ما عزم عليه، إلاّ أنهم اجتاحوها بجيوشهم الجرّارة ودمَّروها، فانسحب المعز إلى (المهديّة) وتحصَّن فيها بقية عمره.

أما شيوخ القبائل الغازية، فقد تقاسموا الدولة الصنهاجية وأحالوها إلى مشيخات صغيرة متطاحنة، لم تستطع الصمود بوجه الغزو النورماندي سنة 517هـ بقيادة (روجار الثاني) الذي استولى على الساحل التونسي، وأخضعه لحكمه طوال اثني عشر عامًا، حتى حرَّره الموحدون الذين أعادوا توحيد المغرب تحت لواء دولتهم القوية.

المشهد الثاني: قال الشاعر ...

أحدث الاجتياح القبلي الكاسح، بما أوقعه من تدمير وتخريب لكل مظاهر الحضارة والتمدن، جرحًا عميقًا في وعي ووجدان الشعراء المغاربة، وظلوا يبكون تونس والقيروان سنوات طويلة، بعد أن تفرقوا في الأمصار هربًا من بطش الغزاة. ويقف في طليعة هؤلاء الشعراء، ابن رشيق (ت456هـ) الذي استقر به المقام في صقلية، ومما قاله في رثاء القيروان والحنين إليها:

ألا سقى اللهُ أرضَ القيروان حيًا ... كأنه عَبَراتي المستهلاتُ
فإنها لِدَةُ الجنَّات تُربتُها ... مِسكيَّة وحصاها جَوَّ هريّاتُ
إلا تكن في رُباها روضةٌ أُنُفٌ ... فإنّما الأحباب روضاتُ
لا يشمتنَّ بها الأعداءُ إنُ رزئت ... إن الكسوف له في الشمس أوقاتُ
هل مطمعٌ أن تُردَّ القيروان لنا ... وصبرةٌ والمعلَّى فالحنيّاتُ

وممن أفاض في وصف ما اجترحته القبائل يوم سقوط القيروان، الشاعر ابن شرف (ت460هـ) حيث يقول:

بعد يومٍ كأنما حُشر الخل ... ق حفاةً به عواريَ رجلى
ولهم زحمةٌ هنالك تحكي ... زَحْمة الحشر والصحائف تُتلى
وعجيج وضجةٌ كضجيج ال ... خَلْق يبكون والسرائرُ تُبلى
من أيامى وراءَهن يتامى ... ملئوا حسْرة وشجْوًا وثكلا
وثكالى أراملاً حاملاتٍ ... طفلةً تحمل الرِّضاع وطفلا

أما الشاعر العذب علي الحصري (ت488هـ)، فقد طوّحت به الهجمة الهلالية إلى الأندلس، فراح يتشوَّق للقيروان ويبكيها قائلاً:

على العُـدْوة القصـــوى وإن عفَـت الـــدارُ ســـــلامُ غـــــريبٍ لا يثـــــوبُ فيـــزدارُ
وحتى بكـــاءُ العـــين والقلـــبُ مُسْـــعِدٌ لمـــن بـــــات مـــــثلي لا حبيـــبٌ ولا جـــــارُ
شـــــــفى الله داء القيـــــروانيين بـــــعدنا فقـــد مرضـــــت للقيـــــروانيين أبصـــارُ
وكيف غنـــاء الطيـــــر فـــي غيـــر أيكهـــا وقد بـــــعدت منهـــا فـــــراخٌ وأوكـــــارُ
ألا يـــا بروقًـــا لُحـــنَ مـــن نحـــو صـــــبرةٍ ولـــيس لـــــها إلا دمـــــوعي أمـــــطارُ
عســـى فيـــكِ مـــن مـــاء الحنيّـــاتِ شـــربة ولو مثل مـــا يـــوعى مـــن المـــاء مِنْقـــارُ

المشهد الثالث: ما قاله الراوي ...

استبدل الراوي في السيرة الهلالية الأبطال الحقيقيين بأبطال متوهّمين، إذ بدلاً من الأمير المعز بن باديس وقبيلته صنهاجة، يطل علينا السلطان الزناتي خليفة وقبيلته زناته. وبدلاً من يحيى الرّياحي وابنه مؤنس اللذين قادا حركة القبائل للغرب، يطل علينا أبو زيد الهلالي وذياب بن غانم الزغبي. وإن كانت السيرة لا تعدم أساسًا من الصحة التاريخية، خاصة فيما يتعلق بالجازية بنت الحسن بن سرحان، التي زوّجها والدها لأمير مكة شُكر بن أبي الفتوح (ت 453هـ) مفضلاً إياه على ابن عم لها، حتى إذا تغيرالهلاليون عليه، أزمعوا خطفها، فأخذوا لها الاذن لتزور والديها في نجد، ثم طاروا بها إلى المغرب، فماتت هناك حزنًا على فراق زوجها.

ومن الملاحظ أن السيرة تحاول أن تصلح ما أفسده الهلاليون، حيث عمدت إلى اصطناع مصالحة مع الزناتيين والتكفير عن ذنب القبائل بتنصيب ابن الزناتي سلطانًا على تونس، وكأنها تكفّر –على صعيد الخيال– عن الذنب الذي ارتكبه الهلاليون على صعيد الواقع، لا بل هي تعمد إلى استقلاب الواقع، إذ تحمّل سعدى وزر سقوط تونس بعد أن سقطت في شراك الحب، فتظهرها بمظهر الخائنة، علمًا بأن شيوخ الهلاليين هم الذين غدروا بالمعز بن باديس، حينما أدخلهم القيروان لتزويجهم من بناته، فبادروه بسيوفهم!!

وتنتظم السيرة الهلالية ثلاث حركات رئيسة هي:

- ❖ حركة الاستكشاف: حيث ينطلق أبو زيد الهلالي وأبناء أخته: يحيى ومرعي ويونس لاستكشاف الطريق إلى (تونس الخضراء) فيقبض عليهم ويلقى بهم في السجن، إلا أن أبا زيد يتمكن من الفرار والعودة إلى قومه، فيستحثهم على المسير إلى تونس.
- ❖ حركة الاصطدام: حيث ينجح الهلاليون في الوصول إلى تونس وافتتاحها اعتمادًا على تعاون سعدى ابنة الزناتي خليفة، فيفكّون أسراهم ويتقاسم أبطالهم البلاد: ذياب بن غانم يستقل بتونس، الحسن بن سرحان يستقل بالقيروان، وأبو زيد الهلالي يستقل بالأندلس!
- ❖ حركة العودة: حيث يستنفر زيدان بن أبي زيد الهلالي قبائل العرب الشامية والحجازية، ثم يرحل بها انطلاقًا من صعيد مصر إلى تونس، فيحاصرها حصارًا شديدًا، يعاونه فيه هلاليو الأندلس، ثم يفتتح المدينة ويقتل ذياب بن غانم. وتنتهي هذه الحركة بإعادة الأمور إلى نصابها، حيث يسلم الهلاليون تونس لابن الزناتي خليفة، ويتوّجون الحسن بن سرحان سلطانًا عليهم، فيما يعود هلالية الأندلس إليها، وزيدان بن أبي زيد يعود إلى صعيد مصر.

المشهد الرابع: ما لم يقله الراوي ...

مع أن الفاطميين اضطلعوا بدور المحرّض على غزو المغرب، إلاّ أن الهلاليين ما كانوا ليقدموا على هذا الغزو، لولا أنهم عانوا من حالة جدب اضطرتهم إلى هذه الحركة باتجاه الغرب. ولعل إصرار الراوي على استخدام تعبير (تونس الخضراء) يعكس ذلك التوق للخصوبة. وإذا كان ذهن (الراوي الصحراوي) تفتّق عن هذه السيرة في حدود القرن السابع أو الثامن –كما يرى بعض الدارسين– فإن الذاكرة الخضراء لم تكتف

بتوثيق وإدانة هذه الهجمة الصحراوية شعرًا، لكنها –وفي ظل التخريب الذي ظل ماثلاً لقرون عديدة– أبّدت هذا التفارق بين البداوة والحضارة عبر مقدمة ابن خلدون التي وضعت في القرن الثامن الهجري (حوالي عام 779هـ)... وقد جاء فيها:

"وإفريقية والمغرب لما جاز إليها بنو هلال وبنو سُليم منذ (عهد) المائة الخامسة وتمرّسوا بها لثلاثمئة وخمسين من السنين، قد لحقا بها وعادت بسائطه خرابًا كلها، بعد أن كان ما بين السودان والبحر الرومي كله عمرانًا، تشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم، وتماثيل البناء، وشواهد القرى والمدَر. والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين". لكن هذا لم يمنعه من الاحتفاء بذكرهم في مقدمته حيث قال من قصيدة طويلة: (فمن أشعارهم على لسان الشريف بن هاشم يبكي الجازية بنت سرحان، ويذكر ظعنها مع قومها إلى المغرب):

قال الشريف ابن هاشم علي ... ترى كبدي حَرّى شكت من زفيرها
يعز للأعلام أين ما رأت خاطري ... يرد أعلام البدو يلقى عصيرها
وماذا شكات الروح مما طرا لها ... عذاب ودائع تلف الله خبيرها
بحسبن قطاع عامري ضميرها ... طوى وهند جافي ذكيرها
وعادت كما خوارة في يد غاسل ... على مثل شوك الطلح عقدوا يسيرها

تغذية راجعة...

حرصًا على رصد ردود أفعال طلابي الأعزاء تجاه السيرة الهلالية، فقد وجهت لهم استطلاع رأي مبسط، هذا نصّه:

(في ضوء ما قرأته وما استمعت إليه من نقاش في مساق "أدب العصور المتتابعة" بخصوص السيرة الهلالية، اكتب مقالة من صفحة واحدة، وأجب فيها عما يلي:

أ- هل سبق لك أن سمعت بالسيرة الهلالية أو قرأت منها أو قرأت عنها قبل دراسة المساق؟

ب-هل كانت السيرة الهلالية صادمة لك أم أنها كانت في حدود توقعاتك، ولماذا؟

ج-برأيك، لماذا نالت السيرة الهلالية ما نالته من شهرة سابقًا؟

د- هل تعتقد أنها تشتمل على خصائص أدبية أو تاريخية بارزة يمكن دراستها بعمق؟

وفيما يلي نماذج من استجابات الطلبة لهذا الاستطلاع:

*** يقول الطالب عمر المدني:**

"أدب العصور المتتابعة" هي أوّل مادة أتعرّف من خلالها على السيرة الهلالية أو سيرة بني هلال. سيرة بني هلال كانت صادمة جدًا، لأنني لم أتوقّع أنّ العرب قديمًا كانوا في غاية القسوة على بعضهم –كما هو الوضع الآن– وهم في مخيلتي السابقة أبطال جابوا الآفاق وحققوا الأمجاد وفتحوا البلاد ومحقوا الفساد وعبدوا ربّ العباد.

لقد نالت السيرة الهلالية شهرة واسعة، لما كان من ظروف عربية قاسية ومتردية سياسيًا واقتصاديًا وعسكريًا وحضاريًا، الأمر الذي أحوجهم إلى التمسك والبحث عن (البطل العربي المخلِّص) حتى ولو كان خُرافيًا، كما نحن الآن بحاجة إلى أبطال ولو على سبيل الخرافة، فنبحث وننقِّب، ثم تكون النتيجة ما نراه الآن، إضافةً إلى حاجتهم آنذاك إلى سدّ الفراغ المهول الذي كان يملأُ أوقاتهم حينئذ، فكانت السيرة الهلالية خير مالئ للأوقات وخير ملهاة عن الأمور المشينة والأوضاع المترديّة.

*** وتقول الطالبة هالة عابد:**

لقد سمعت بالسيرة الهلالية من قبل، ولم أتوقع أن أدرسها في مادة من مواد تخصصي. لم أقرأ شيئًا عنها، فكان من المفيد أن نتناولها بالبحث، وقد كانت قراءَتها مضحكة قليلاً، لأنّ لغتها بعيدة عن اللغة العربية الفصحى ويختلط فيها العامي بالفصيح. إنها حكايات شعبية يشعر القارئ بأنها تقوم على الخيال أكثر من التصوير الواقعي للأحداث، ولقد نالت شهرة واسعة لأنها تعتمد على الأسلوب الشعبي المحكي؛ فقد كان العرب وما زالوا يفضلون الاستماع أكثر من القراءة، وخاصة أن المجتمعات القديمة لم يكن فيها وسائل ترفيهية أو وسائل للتسلية، فاحتلت السيرة الهلالية موقعًا هامًا وحققت انتشارًا واسعًا. يمكن للسيرة الهلالية أن تشكل وثيقة على المستوى الأدبي فقط، ولا أظنها مهمة على المستوى التاريخي.

*** وتقول الطالبة هبة آدم:**

لم أسمع بالسيرة الهلالية من قبل. سمعت باسم (أبو زيد الهلالي) ولكنني لم أستمع للقصة أو تفاصيلها وأسباب كتابتها، إلا في مساق أدب العصور المتتابعة. لم تكن في حدود توقعاتي، وتفاجأت بالطريقة التي كتبت بها السيرة. وأتوقع أن السيرة الهلالية نالت شهرة كبيرة لأن الإنسان بطبيعته يميل إلى القَصّ حتى يملأ أوقات فراغه. وسبب انتشارها يعود إلى أنها سيرة شعبية كتبت بالعاميّة أي بلغة الناس العاديين. إنها ليست نصًا أدبيًا متكاملاً؛ فنجد فيها كلمة بالعامية وكلمة بالفصحى، وهي غير منتظمة إلى درجة أن تكون نصًا أدبيًا أو تاريخيًا.

*** ويقول الطالب ربيع ربيع:**

لقد كانت السيرة الهلالية صادمة جدًا، فقد كنت أتصور شخصية أبي زيد الهلالي إيجابية ومشرّفة. فوجدتها على العكس تمامًا؛ فهو إنسان قاطع طريق يسهل عليه خيانة العيش والملح! كما صُدمتُ أيضًا بركاكة النص وبعده عن الواقعية وميله إلى الإسراف واللامنطق.

وقد نالت السيرة هذه الشهرة لعدة أسباب:

1- الانحطاط الثقافي.
2- معضلة البحث عن بطل في زمن الهزائم.
3- نرجسية الراوي الحقيقي وبعده عن حياة الناس.

أعتقد أن السيرة معدومة الفائدة أدبيًا، ويجب استخدامها كمدخل لدراسة الذوق الشعبي. أعتقد أيضًا أننا بحاجة إلى (مَنْتَجة) هذه السيرة مع عدم إلغاء النص الأصلي، بحيث تكون أقرب إلى الحقيقة التاريخية وتقديم بني هلال على حقيقتهم.

*** عود إلى بدء**

لم ألمْ الطلاب ولم أفاجأ بخيبة أملهم، لأن السيرة الهلالية تفتتح على هذا النحو الصادم والملفق تاريخيًا وعقائديًا:**(بسم الله الرحمن الرحيم؛** حمدًا لمن جعل سير الأوَّلين عبرة للآخرين **(أما بعد)** فهذه سيرة بني هلال التي يشتاق لقراءتها الكبار والصغار على مر الأجيال. **قصة جابر وجبير:**

قال الراوي بعد وفاة الزير أبي ليلى المهلهل، وضعت امرأة الأوس غلامًا سموه عامرًا. وعندما بلغ سن الرجولة تزوج بامرأة من أشراف العرب فولدت له غلامًا في نفس الليلة التي مات فيها جده الجرو فسماه هلالاً، وهو جدّ بني هلال. وكان متصفاً بالفضل والأدب، ولما كبر الأمير هلال تزوج بامرأة بديعة في الجمال، فولدت غلامًا سماه المنذر. واتفق أن هلال زار مكة في أربعمائة فارس. وطافوا حول البيت، وتشرّف بمقابلة النبي المختار، فأمره النبي (صلى الله عليه وسلم) أن ينزل في وادي العباس، وكان النبي يحارب بعض العشائر المعادية له، فعاونه الأمير هلال ومدّه بالعساكر. وكانت فاطمة الزهراء راكبة على جمل في الهودج، فلما رأت هول القتال ومصارعة الأبطال حوّلت راحلتها لتبتعد عن القتال، فشرد بها الجمل في البر، فدعت على الذي كان السبب بالبلاء والشتات، فقال لها أبوها: ادعي لهم بالانتصار فهم بنو هلال الأخيار وهم لنا من جملة الأحباب والأنصار، فدعت لهم بالنصر، فنفذ فيهم دعاؤها بالتشتيت والنصر. ثم رحل الأمير هلال إلى وادي العباس، وعسكر في تلك النواحي. ولما سمعت به العربان تواردت إليه من جميع الجهات، فكثرت عنده الأصحاب والأنصار...)!!!